قلبٌ في العتمَة

في صباحٍ ساكنٍ من أيام الشتاء، نهضت أملُ من نومها على خيوط الضوء التي انسابت برفقٍ من نافذة غرفتها، كأنها رسائل سلامٍ ترسلها الشمس إلى قلبها الصغير. فتحت عينيها ببطء، ثم جلست على سريرها، وأراحت قدميها على سجادة غرفتها الزرقاء التي لطالما أحسّت معها بالأمان، وشعرت بحرارتها تخفّف من برودة الجو الشتوي. مدّت يدها نحو الستارة، ثم سحبتها قليلًا، فرأت لمعان قطرات المطر المتشبثة بزجاج النافذة كأنها حكايا علقت على أطراف الليل.

تنفّست بعمق، فامتلأت رئتاها برائحة المطر العالقة في الهواء، تلك الرائحة التي تحمل معها ذاكرة الأرض حين تُغسل من التعب. ابتسمت وهمست: أشعر أنّ هذا اليوم سيكون مختلفًا... سيكون يومًا سعيدًا.

نهضت من فراشها بخفة، وكأن خطواتها تنبع من يقين داخلي بأن شيئًا جميلًا في طريقه إليها. تناولت طعامها على عجل، ثم حملت حقيبتها وخرجت بخطواتٍ متفائلة بينما كانت العصافير تحلّق فوق المنازل وتُطلق زقزقاتٍ بدت وكأنها تهنئة خفية للصباح الجديد.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، إلا أنّ ضوء الشمس المتسلل بينها كان يمنح المشهد جمالًا خاصًا. سارت أمل تراقب آثار المطر على الأرصفة، وتتخيل قطراته كأنها توقّفت قليلاً لتترك بصمتها ثم تتابع رحلتها.

وحين وصلت مدرستها، دخلت الصفّ وألقت السلام على زميلاتها. رأت معلمتها ابتسام تقف أمام السبورة، بعينيها المليئتين بالهدوء والحكمة. قالت المعلمة بابتسامة دافئة: صباح الخير يا طالبات، اليوم لدينا نشاط مميّز. أريد من كل واحدة أن تكتب موقفًا أحسنتِ فيه إلى غيرك.

بدأت الطالبات بالتفكير، أما أمل فاستحضرت مواقف صغيرة صدرت منها بصدق، فكتبت:

ساعدتُ أمي طيلة اليوم في ترتيب المنزل لأنها كانت متعبة.

جمعت المعلمة الأوراق، ثم حين وصلت إلى ورقة أمل قالت بلطف:

موقفك جميل، ولكن لديّ ملاحظة لغوية دقيقة؛ تعبير (طوال اليوم) أدق وأشيع استعمالًا، ويذكر أن طوال من الطول، وتأتي بمعنى مدّة كاملة أو إلى آخر الزمن المحدد، تستخدم في القرآن والحديث وكلام العرب القديم بهذا المعنى: طوال الليل طوال النهار، كما جاء في معجم لسان العرب، أما (طيلة اليوم) فصيح، ولكنّه أقل فصاحة في هذا الموضع، فهي ليست خطأ تماما، لكنها أخف قوة وفصاحة وتأتي غالبًا بمعنى «خلال»، ولذلك يفضّل في السياق الزمني الطويل قول طوال اليوم.

رفعت أمل رأسها وقالت بإعجاب: لم أكن أعلم ذلك يا معلمتي!

فابتسمت المعلمة قائلة: لغتنا العربية مثل محاسن الأخلاق يا أمل؛ كلما ازدادت دقّة، ازداد جمالها.

خرجت أمل من المدرسة وهي تحمل في داخلها شغفًا جديدًا للغة. وبعد الغداء، اقتربت من أمها وقالت: أريد أن أذهب إلى الحديقة لألعب مع أطفال الحي.

فأجابتها أمها: اذهبي، ولكن عودي قبل مغيب الشمس.

ارتدت أمل معطفها وخرجت. وفي الطريق إلى الحديقة، رأت رجلًا مسنًّا يجلس قرب بستان صغير على كرسي خشبي. بدا شاحبًا قليلًا، محدقًا في الأرض. وقفت أمل لحظات، ثم اقتربت منه بخطوات خفيفة وقالت بلغة عربية فصحى نقية: السلام عليكم أيها العم، أأنت بخير؟

رفع الرجل رأسه ببطء وردّ بصوت مبحوح: وعليكم السلام يا ابنتي... نعم، أنا بخير، إنما أستريح قليلًا.

قالت أمل وقد لاحظت حزنًا في عينيه: هل تحتاج إلى شيء؟

ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

لا يا صغيرتي، يكفيني أنك توقفتِ وسألتِني. إنّ الإنسان حين يشعر أنّ أحدًا يراه ولا يتجاهله... يطمئن قلبه.

تأملت أمل كلامه وودّعته بأدب ثم توجهت إلى الحديقة، ولكن كلماته بقيت عالقة في ذهنها.

لعبت مع الأطفال، لكنها كانت تعود بنظرها إلى الطريق كلّ مرة. ومع غروب الشمس قررت العودة.

وفي المكان الذي رأت الرجل فيه أول مرة... لم تجده. لكنها رأت طفلًا صغيرًا يبكي وحده.

اقتربت منه وقالت بلغة فصيحة: ما بالك تبكي يا صغيري؟ أين أهلك؟

نظر إليها بعينين دامعتين وقال: لقد ضعت... كنت مع جدّي ثم اختفى فجأة... لا أدري أين ذهب.

شهقت أمل وقالت بقلق شديد: أتقصد جدّك الرجل الذي كان يجلس هنا؟ هزّ الطفل رأسه مؤكدًا.

حاولت أمل التماسك وقالت: لا تخف، سأساعدك في العثور عليه.

أمسكت بيده وقالت: هَلُمّ بنا نبحث عنه... لن يبتعد كثيرًا إن شاء الله.

وبينما كانا يسيران في البستان، سمعا صوتًا بعيدًا ينادي بفزع: عبدالله!... عبدالله أين أنت؟

صرخ الطفل بفرح: جدي! أنا هنا!

ظهر الرجل المسنّ وهو يهرول ببطء، وجهه مليء بالقلق. وحين وصل، احتضن حفيده بقوة وقال بصوت يرتجف: الحمد لله أنك بخير يا بني... ظننت أنني فقدتك!

ثم التفت إلى أمل، وعيناه تمتلئان امتنانًا، وقال بفصحى واضحة وإن كانت ضعيفة من التعب:

جزاكِ الله خيرًا يا ابنتي... لقد حفظتِ حفيدي حين خفتُ أن أفقده. أنت اليوم صَنَعتِ معروفًا لا يُنسى.

خفضت أمل رأسها خجلًا وقالت: إنما فعلتُ ما يمليه عليّ قلبي... ولم أفعل إلا الواجب.

ردّ الرجل: الواجب لا يفعله الجميع يا صغيرتي... الخير الحقيقي هو ما يُفعل حين لا يراكِ أحد، ولا تنتظرين عليه ثناءً. ثم مسح دمعة سقطت من عينه وقال: لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت.

عاد الرجل مع حفيده، وبقيت أمل واقفة تستجمع أنفاسها. شعرت أنها عاشت درسًا أكبر من عمرها.

عادت للبيت قبل أن يكتمل الغروب. وحين رأت أمها، ألقت بنفسها في حضنها وقالت:

أمي... تعلمت اليوم أن أصغر عمل خير قد يغيّر حياة إنسان.

فقالت الأم وهي تضمها: هكذا يكبر القلب يا أمل... وهكذا تتعلّم الروح.

وفي تلك الليلة، جلست أمل قرب نافذتها تتأمل المطر الذي بدأ يهطل من جديد، كأنه يغسل قلبها كما يغسل الأرض.

وغفت وهي تردد في نفسها درسها الأكبر: إنّ الخير لا يحتاج مناسبة... بل يحتاج قلبًا يختاره.

القيمة: الإحسان إلى الغير

المفردة الشائعة وتصويبها: (طيلة اليوم) تصويبها (طوال اليوم)

عدد كلمات القصة: ٨٥١ كلمة

اسم المجموعة: الإتقان

القائدة: جوري سعد العلياني

الأعضاء: دانة عبدالعزيز القحطاني- يارا فيصل الفوزان - أفراح فوزي الصومالي